تجليّات مفهوم التّنوع الثقافي في الدّرس المقارن الجزائري

الأدب المقارن وقضايا الحوار الثقافي، التّعدّديّة الثّقافيّة وهجنة الهويّات

Manifestations of the concept of cultural diversity in the Algerian comparative lesson

- Comparative literature and the issues of cultural dialogue، cultural pluralism and hybrid identities -

د.هجيرة بوسكّين

تاريخ الاستلام: 2021/03/22 / **تاريخ القبـــول:** 2021/04/26

ملخّص: مع ما يشهده عصر العولمة من ارتفاع ملحوظ في مستوى تداخل الثّقافات، بات من الصّعب دراسة أيّ ثقافة أو أدب خارج إطار المقارنة، وذلك لما للمقارنة من دور هام في الكشف عن مميّزات كل ثقافة ودرجة تداخلها وحوارها مع الثّقافات الأخرى. وبما أنّ المقارنة أصبحت قدر أيّ دراسة علميّة جادة، كان لابدّ للدّرس المقارن الجزائري من الانفتاح على آفاق جديدة تمكّنه من ممارسة المقارنة الثّقافيّة، وقد أتاح له النّقد الثّقافي بما يتضمّنه من مقولات ومفاهيم وأدوات نقديّة، دراسة مختلف الحمولات الثّقافيّة التي تتضمّنها النّصوص الأدبيّة، وكذلك الوقوف على مختلف مظاهر التّنوع الثقافي وحوار الثّقافات أثناء عمليّة المقارنة بين الآداب المختلفة.

وعليه يهدف هذا المقال إلى تقصّي تجلّيات مفهوم التّنوع الثّقافي ومختلف القضايا المتعلّقة به في حقل الدّراسات المقارنة الجزائريّة، باعتبار أنّ الأدب المقارن يعدّ ميدانا مناسبا لدراسة مختلف مظاهر الاتّصال الثّقافي والحضاري بين الشّعوب، وما ينجم عنه من تقارب وهجنة بين الهويّات الثّقافيّة المختلفة.

كلمات مفتاحيّة: التّنوع الثّقافي؛ الدّرس المقارن الجزائري؛ الحوار الثّقافي؛ التّعدّديّة الثّقافيّة؛ هجنة الهويّات.

Abstract: With the remarkable increase in the level of interculturalism in the era of globalization, it has become difficult to study any culture or literature outside the framework of comparison, due to the important role of comparison in revealing the characteristics of each culture and the degree of its interference and dialogue with other cultures.

[1] جامعة يحيى فارس المدية، الجزائر، البريد الإلكترونيّ: hadjira.bousekkine@yahoo.fr (المؤلّف المرسل)

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

Accordingly, this article t tries to investigate the manifestations of the concept of cultural diversity and the various issues related to it in the field of Algerian comparative studies, considering that comparative literature is a suitable field for studying the various aspects of cultural and civilizational contact between peoples.

Keywords: cultural diversity; Algerian comparative lesson; Cultural dialogue; Cultural pluralism; the hybridization of identities.

1. **مقدّمة:** يعيش العالم اليوم انتقالا نوعيّا جديدا وغير مسبوق إلى مستوى آخر من مستويات العلاقات الثّقافيّة بين الأمم والشّعوب من ناحيّة، وبين أفراد الشّعب الواحد من ناحيّة أخرى، يتجاوز هذا الانتقال بمراحل شاسعة ما كان قائما من قبل، مثل ما كانت تقوم به التّرجمة أو التّجارة أو الحروب أو الهجرة، من إيجاد أشكال من التّفاعل والتّبادل الأدبي والمعرفي والثّقافي. وهو الأمر الذي يطرح وضعيّة جديدة لمفهوم العلاقات الأدبيّة والثّقافيّة أمام الدّرس المقارن الجزائري، من زاويّة أنّ العالم قد أخذ يتّجه أكثر فأكثر نحو التّداخل والهجنة والتّنوع الثّقافي.

أمام هذا الوضع الجديد، صارت الحاجة إلى تجديد وتحديث الدّرس المقارن العربي عموما والجزائري بشكل خاص مطلباً ضرورياً من أجل مواكبة القضايا المستجدّة التي أفرزها الواقع ما بعد الكولونيالي مثل: قضايا **الحوار الثّقافي والاختلاف والتّنوع والهجنة والتّعدّديّة الثّقافيّة والهجرة وصراع الأقلّيات**، فقد أمست الحاجة ملحّة إلى دراسة النّصوص الأدبيّة ضمن مناخاتها وأنظمتها الثّقافيّة المختلفة من شعب إلى آخر والتّصدي لفكر **"العولمة"** الذي يسعى إلى تكريس فكر الائتلاف و**"عولمة الثّقافة"**، بتركيزنا على الكشف في دراستنا المقارنة عن كلّ ما من شأنه تعزيز فكر **الاختلاف** الذي يؤدي إلى التّكامل والتّنوع والتّآزر بين مختلف الثّقافات التي صارت تشكّل البنيّة السوسيوثقافيّة للمجتمعات المعاصرة، وعدم تغليب ثقافة على ثقافة أخرى أو استلابها وإخضاعها بإدراجها ضمن نموذج ثقافي موّحد يخدم جهة دون الأخرى.

من هنا يتحتّم على الدّرس المقارن الجزائري، في ظل ما يعيشه العالم من انفتاح على الثّقافات تداخلت فيه الهوّيات والثّقافات بفعل التّواصل والتّلاقح العالميين، أن يخوض غمار القضايا المستجدّة وأن يسهم في دراسة النّتاجات الأدبيّة والثّقافيّة للشّعوب، دراسة مقارنة تظهر ما هو مشترك بينها، وأن تتجاوز الدّراسات المقارنة المعاصرة أطر المقارنة التّقليديّة بين الآداب لتجيب عن القضايا والأسئلة الثّقافيّة الرّئيسيّة للمجتمع الجزائري الذي يعيش داخل فسيفساء من التّنوّع الثّقافي واللّغوي، فهو مجتمع عربي إسلامي، أمازيغي، متوسّطي إفريقي، يجمع بين عدد كبير من اللّهجات كالشاويّة والمزابيّة والتّارقيّة والقبائليّة، غير أنّه برغم هذا التّعدد الثّقافي، وبرغم كلّ ما مرّ به عبر مراحل التّاريخ المختلفة من تفاعل الثقافات والحضارات المتعاقبة عليه مع

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

هويّته القوميّة، لا يزال مجتمعا واحدا متماسكا تحت لواء العروبة والإسلام والجذور الأمازيغيّة.

وفي ظلّ هذا التّنوع الذي يسم الهويّة الثّقافيّة للمجتمع الجزائري، ينبغي على الدّراسات المقارنة الجزائريّة أن تسهم في معالجة مجموعة من القضايا التي صارت تشكّل حيّزا هامّا من مضامين النّصوص الرّوائيّة الجزائريّة المعاصرة التي اتّجهت إلى مناقشة قضايا التّعدد الثّقافي والهجنة والحوار في المجتمع الجزائري، ولعلّ انفتاح الدّرس المقارن الجزائري على النّقد الثّقافي والدّراسات الثّقافيّة بشكل عام، هو السّبيل المناسب الذي يسمح بمساءلة النّصوص الأدبيّة الجزائريّة المعاصرة مساءلة ثقافيّة، باعتبار أنّ كلّ نصّ هو نتاج ثقافة معينة نما وتغلغل داخل منظومتها واصطبغ بسماتها الثّقافيّة، فعبّر بذلك عن هويّة هذه الثّقافة وناقش إشكالاتها المختلفة.

وعليه يهدف هذا المقال إلى البحث في تجلّيات مفهوم التّنوع الثّقافي ومختلف القضايا المتعلّقة به في حقل الدّراسات المقارنة الجزائريّة، من خلال الإجابة عن الإشكاليّة الآتيّة: إلى أيّ مدي يمكن للدّراسات المقارنة الجزائريّة أن تسهم في دراسة قضايا التّنوع الثّقافي في النّصوص الرّوائيّة الجزائريّة المعاصرة؟ وفيم تتمثّل تجلّيات مفهوم التّنوع الثّقافي والقضايا التي ترتبط به في حقل الدّراسات المقارنة ؟

للإجابة عن هذه الإشكاليّة ننطلق من فرضيّة أساسيّة تتمثّل في أنّ علم الأدب المقارن الذي انفتحت مباحثه في السّنوات الأخيرة على قضايا النّقد الثقافي، يعدّ اليوم أفضل وأنسب ميدان بحثي يمكّننا من الوقوف على أشكال ومظاهر التّنوع الثّقافي داخل المجتمعات، ذلك أنّ الدّراسات المقارنة المعاصرة عرفت توجّها واضحا إلى معالجة جملة من القضايا في النّصوص الأدبيّة مثل: قضايا التّمثّلات الثّقافيّة والأنساق الثّقافيّة الظاهرة أو المضمرة داخل النّصوص، ومختلف القضايا التي أفرزها الواقع ما بعد الكولونيالي وارتبطت في أغلبها بالسّرد الثّقافي **مثل: الهجرة وصراع الاقلّيات والغيريّة وتمثّلات الآخر وقضايا التّعدديّة الثّقافيّة وهجنة الهويّات.**

2. الأدب المقارن وقضايا الحوار الثّقافي، التّعدّديّة الثّقافيّة (التّنوع الثّقافي) وهجنة الهويّات:

لقد أخذت الدّراسات المقارنة المعاصرة عن النّقد الثّقافي عدّة مفاهيم ومصطلحات مثل: **التّعدّديّة الثّقافيّة والهجنة والنّسق وحوار الثّقافات**...، وغيرها من المصطلحات التي تبنّاها النّقد الثّقافي بعد أن التفت إلى الثّقافات الهامشيّة والفئات الشّعبيّة والأقلّيات الاجتماعيّة والدّينيّة والمذهبيّة والإثنيّة، وتجاوز كلّ ما هو مؤسّساتي متحكّم ومهيمن سلطويّا وفكريّا.

1.2 في مسألة التّعدديّة الثّقافيّة:

لقد جاء مفهوم التّعدّديّة الثّقافيّة في الغرب كردّ فعل على « المركزيّة الثّقافيّة ذات الوجاهة الرّاسخة من حيث هي ثقافة ذكوريّة غربيّة. وفي مواجهة هذه السّمات المهيمنة والمتجاهلة للآخر،

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

تـأتي التّعدّديّـة الثّقافيّـة لتطـرح قضـيّة الثّقافـة بوصـفها ذات تكوينـات متعـدّدة، كالنّسـويّة والسّود والعناصـر البشـريّة الأخـرى الـتي ليسـت بيضـاء وليسـت ذكوريّـة، ولم تكـن في التّيـار المؤسّسـاتي الرّسمـي».[1] (عبـد اللّه الغـذامي، 2001. ص.41)، فالتّعدّديّـة الثّقافيّـة تعـني العـيش المشـترك لفئـات اجتماعيّـة متعـدّدة ولثقافات مختلفة على المستوى الفردي والقومي، وكلّ منها لـه هويّته الـتي اكتسبها عبر التّاريخ حتّـى صـارت جـزءًا مـن تكوينـه وتاريخـه ومنجزاتـه، بكـلّ قيمهـا ورموزهـا ممّـا يسِمها بهويّة ثقافيّة خاصّة بها، ولكن في إطار التّعدّديّة. ولا بدّ من وجود نوع من التّجانس وعدم طغيان ثقافة هويّة على الأخرى.

إنّ المجتمع المتنوّع الثّقافات يُفترَض به احترام جميع الهويّات المتعايشة فيه، بعيدا عن التّصادم والتّقوقـع والانطـواء حـول الـذّات ونبـذ الآخـر وتهميشه، «نحن اليوم أمام عالم آخر، هو عالم الإنسان المواطن العالمي وينبغي الانخراط ضمن ذلك العالم بصورة مباشرة، لنكون فاعلين في تشـكيله ومشـاركين في بلورتـه. إنّ زمننـا زمـن المشـاركة العالميّـة لكـلّ كـائن بشـري فاعـل، مهمـا كانـت جنسـيّته وانتماءاتـه.»[2] (حفنـاوي بعلي، 2011، ص. 224).

تنجم عن ثقافة العيش المشترك وتقبّل الآخر في المجتمعـات المتعـدّدة الثّقافـات، مجتمعـات تضـمّ داخـل بنيتهـا السّوسـيو ثقافيّـة هويّـات متعـدّدة وأحيانـا هجينـة، ذلـك أنّـه لا وجـود في الحقيقـة لهويّـة سـاكنة تتكـوّن دفعـة واحـدة وتبقـى علـى حالها منـذ الـولادة إلى الوفـاة، إنّ عناصـر هويّتنـا الـتي نحملـها عنـد الـولادة ليسـت متعـدّدة فهـي مقتصرة على بعض الميـزات الجسديّة فضـلا عن الجـنس واللّـون... وعلـى الـرّغم مـن أنّ البيئـة الاجتماعيّـة ليسـت بـالطّبع مسـؤولة عـن الجـنس (الجنـدر)، غـير أنّهـا مسـؤولة عـن معنـى هـذا الانتماء[3] (أمين معلوف، 1999، ص. 28.)

إنّ ما يحدّد انتماء الفرد إلى جماعة معيّنة هو في الأساس تأثير الآخرين عليه، أو تأثير القريبين منه، أي أهلـه ومواطنيـه وأبنـاء دينـه الـذين يسـعون لامتلاكـه، وتـأثير مـن هـم في مواجهتـه لأنّهـم يحاولون إلغاءه...فهو ليس من هو فوراً، ولا يكتفي بإدراك من هو بل يصبح ما هو عليه، أي أنّه لا يكتفي بإدراك هويّته، بل يكتسبها شيئًا فشيئًا.

2.2. في مسألة هجنة الهويّات:

تعتبر "الهجنة" لعبة الهويّات المركّبة التي تواجه الخطاب الأصولي عبر النّهل من ثقافات متعدّدة. وهو ما يتيح إمكانيّة تجاوز "ماهويّة " الهويّة نحو آفاق ثقافيّة رحبة أساسها التّفاعل المستمر. وما دامت الهجنة تمجّد التّلاقح والتّواصل، فإنّها بذلك تدحض علاقة الصّراع والفرقة والانقسام بين الأنا والآخر. ولأنّ الهويّة ليست ثابتة وسكونيّة بل تخضع لمنطق التّحوّل والتّغيّر، فإنّ الهجنة بذلك هي مفهوم مناوئ لمفهوم الهويّة الصلبة التي تصنِّف نفسها نقيضا للآخر وتقيم الحواجز بين العوالم الثّقافيّة، خاصة أن« جميع

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الثقافات، جزئيا بسب (تجربة) الإمبراطوريّة، منشبكة إحداها في الأخريات، ليست بينها ثقافة منفردة نقيّة محضة، بل كلها مهجّنة مولّدة، متخالطة، متمايزة إلى درجة فائقة، وغير واحديّة.» [4] (إدوارد سعيد، 2004، ص.85.)

وعليه لا تخضع الهجنة لسلطة نسق واحد ولا تدين لقيم ثقافيّة ثابتة، فهي تداخل وتلاقح بين العوالم تنزاح فيه الهويّة عن كل ما يوصل إلى الصّدام، فقد غدت اليوم جميع الثّقافات متمازجة تعيش حالة من" التهجين"، فالعالم اليوم متكوّن من هويّات كثيرة تتفاعل بشكل منسجم حينا ومتنافر حينا آخر، إلا أنّها تبحث جميعها عن وجود إنساني مشترك لا يقوم على السّيطرة والإرغام، وجود مبني على التّواصل بين الشّمال والجنوب والشّرق والغرب، وهو ما يسمح بالانفلات من المنظور الإقصائي. من هنا تهدف الهجنة إلى تقويض نزعة التّمركز الثقافي حول الذّات والوطنيّة للعبور نحو التّلاقي بين الجغرافيات والثّقافات والقوميّات، لتأسيس أفق إنساني يتحرّر من وهم الانتماء المنغلق المعادي للحوار.

تُبقي حركيّة الهجنة الهويّة متّسمة بطابع الانفتاح، قادرة على التجدّد لأنّ الهويّة ليست بناءً جامدا فهي تخضع للتّحول والتّغير والبناء المستمر والمتواصل دون انقطاع» من المفيد التّأكيد على عدم استقلاليّة المستعمر والمستعمَر عن بعضهما، فالهويّات من كلا الطرفين ليست مستقرة ومتألمة، وفي حالة تدفق مستمر. وهذا يوهن ادعاءات كل من المستعمرين والقوميين بوجود ذات موحدة » [5] (آنيا لومبا، 2007، ص.182.)

ترتبط الهجنة وفق ما يراه **"إدوارد سعيد"** بالهويّة في تجاوزها انعزاليتها وتمركزها حول الذّات، وهو ما يفسّر تركيزه على إبراز مزالق القوميّة المنغلقة وإصراره على ضرورة الاندماج في الهويّة الإنسانيّة. وبرغم أن هذا الاندماج هو في الحقيقة مطلب صعب التّحقيق على أرض واقع مفعم بالتناقضات والتّوتر والصّراع والرّغبة المحمومة في السّيطرة الاقتصاديّة والسياسيّة والثّقافيّة، إلاّ أنه في الوقت نفسه لا يتعارض مع تشديد "إدوارد سعيد" على التعدديّة الثقافيّة التي تشي بأنّنا إزاء هويّات لا هويّة منفردة واحدة.

من هنا يمكننا القول إنه برغم الاعتراض الذي تحمله الهجنة على منطق الثّنائيات من قبيل: الأنا والآخر، الشّرق والغرب، الشمال والجنوب بدعوى الاندماج في عالم إنساني واحد، إلاّ أنّ الهويّة لا يمكنها أن تتشكّل وتبنى إلا عبر الآخر إذ « لا يمكن أن توجد بمفردها من دون ثلة من النقائض والنوافي والأضداد، فالإغريقيون يقتضون البرابرة، والأوروبيون يقتضون الأفارقة والشرقيين، والعكس صحيح دون ريب» [6] (إدوارد سعيد، 2004، ص.111.)

ورغم أن الهجنة صارت مطلبا إنسانيا في عالم ينحو نحو الصّراع بين الأنا والآخر، خاصة مع بروز مواقف متطرّفة ومتعصّبة تتجه نحو التّنافر والفرقة، تارة باسم الدّين، وتارة باسم العرق، فإنّها

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

تظلّ رؤيّة مثاليّة كونيّة لتلاقح الثّقافات وتفاعلها حول أفكار محدّدة خاصة بالعدالة والتّسامح ونبذ الاستبداد والدّعوة إلى مقاومة الهيمنة والاستعمار والكولونياليّة في زمن يعود فيه الاستعمار العسكري والاحتلال المباشر إلى إملاء الإرادة على الشعوب المستضعفة [7] (فخري صالح، 2009، ص. 80)، وهنا تعود فكرة الصّراع مع الآخر لتطفو على السّطح من جديد.

3.2. في مسألة الحوار الثّقافي:

يؤكّد **ستيفن توتوسي** (Steven Totose) - الذي يعدّ من أبرز أساتذة الأدب المقارن ومنظّري النّقد الثّقافي في الولايات المتّحدة الأمريكيّة- في دراسته حول(**الأدب المقارن والدّراسات الثّقافيّة التّطبيقيّة) عام 1994**[8] **(** مصلح النّجار، 2008، ص. 98) ، أنّ الأدب المقارن يتضمّن عددا كبيرا من الميادين التي يدخلها دعاة النّقد الثّقافي ضمن دراساتهم، ويرى أنّ مسار الدّراسات النّظريّة والتّطبيقيّة التي أنجزت حتى اليوم في إطار الأدب المقارن تبيّن أنّ هذا التّخصص- الذي يتقاطع ويتداخل مع عدد من العلوم الإنسانيّة الأخرى- يتضمّن في ميادين بحثه المتنوّعة، ومكوّناته المنهجيّة المفتوحة على التّجديد ما يؤهّله لدراسة **مختلف التّجلّيات الثّقافيّة لأيّ مجتمع، ودراسة الحوار بين الثّقافات** (المثاقفة)، والعلاقة بين الأدب ومختلف العلوم الإنسانيّة.

وفي محاولة منه التّقريب بين الأدب المقارن والنّقد الثّقافي ودمجهما في نظام منهجي واحد اكتشف **توتوسي** في دراسة له بعنوان (من الأدب المقارن اليوم إلى الدّراسات الثّقافيّة، 1999) إمكانيّة تطوير منهج جديد يجمع بين خصائص الأدب المقارن وبين سمات النّقد الثّقافي، واقترح أن يسمّيه (**الدّراسات الثّقافيّة المقارنة (**Comparative Cultural Studies**)** وقام بتحرير ما قدّمه في كتابه (الأدب المقارن: النّظريّة والمنهج والتّطبيق 1998) من مبادئ للمقارنة بهدف تمكين الأدب المقارن من مواكبة المتغيّرات التي أفرزتها **العولمة**، واعتبر هذه المبادئ الأسس التي ينبغي أن تنهض عليها الدّراسات الثّقافيّة المقارنة التي يعرّفها بأنّها

« مقاربة سياقيّة تتناول الثّقافة بمختلف مكوّناتها وآليّات إنتاجها. ويرتكز إطارها النّظري والمنهجي على مجموعة من المبادئ المستعارة من الأدب المقارن والدّراسات الثّقافيّة. ومن مجموعة الأسس المرتبطة بالبنائيّة ونظريّات الاتّصال والأنظمة والثّقافة والأدب. [9] **(**مصلح النّجار، 2008، ص.99.). تهتم الدّراسات الثّقافيّة المقارنة، التي عادة ما تركّز على كيفيّة تكوين الظّاهرة –أو النّص- أكثر من اهتمامها بالمحتوى أو الموضوع، بالجوانب التّطبيقيّة إلى جانب المنطلقات النّظريّة والمنهجيّة.

إنّ انفتاح الأدب المقارن على الدّراسات الثقافيّة مكّنه من دراسة عدّة قضايا راهنة، مثل قضيّة "**الحوار الثّقافي**" التي تُطرح عادة في المجتمعات التي تعرف تنوّعا ثقافيا بين الأنا والآخر في بنيتها الاجتماعيّة.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يعتبر "**الحوار الثّقافي**" أطروحة بديلة في الدّراسات الثّقافيّة والمقارنة اليوم لصراع أو صدام الحضارات والثّقافات، الأمر الذي سيجعل الدّراسات المقارنة العربيّة تنفتح على أفق أنساني عالمي يمكّنها من تجاوز الخلافات والنّزاعات التي تحدّ من آفاق الإبداع وتضعه ضمن قالب من التّميط، تؤطّره الأحكام المسبقة والنّوازع الذّاتيّة، كما أنّ هذا الطّرح الجديد **(الحوار الثّقافي)** سيمنح الإنسانيّة فرصة التّخلّص من كلّ الخلافات الموجودة بين الثّقافات، دون أن يكون في ذلك إلغاء للاختلافات والتّمايزات الموجودة بينها، أو طمس لخصائصهما المميّزة. « فكلّ ثقافة من الثّقافات تتمتّع بمميّزات وخصائص مفردة، مثل القيم والمعايير، والمبادئ والعادات والتّقاليد، التي لا يمكن رفضها بحجّة الاختلاف عن قيم ومبادئ ثقافة الآخر. وأخذ العناصر المشتركة في تجربة الإنسان في الحسبان كنقيض للمفاهيم العنصريّة، عن القيم المطلقة، وعدم إهمال القيود التي يفرضها كلّ نظام أخلاقي، في كلّ ثقافة من الثّقافات. فالأصل الواحد للبشريّة لا ينفي ولا يختزل الاختلاف والخصوصيّة » [10] (العلاّلي الصّادق، 2006، ص. 97.)

إنّ قبول الأنا للآخر يعني إدراكها وتقبّلها لاختلافه عنها، فلكلّ من الأنا والآخر ما يميّزه على الرّغم من وجود عناصر مشتركة تجمعهما وتؤدّي إلى تفاعلهما وتكاملهما.

إنّ **مبدأ الحوار** الذي ينبغي أن يتبنّاه الدّرس المقارن، لا يمكن أن يقوم إلاّ إذا احتُرِمت خصوصيّة الآخر مهما كان جنسه أو لغته أو دينه، فاختلاف الآخر عن الأنا لا يعني أنّه تهديد لها، بقدر ما يعني أنّه تكملة للنّقص الذي فيها. فكلّ منهما يتأثّر ويؤثّر في الطّرف الآخر أدبيّا وثقافيا واجتماعيا وسياسيّا لأنّ العلاقة بينهما علاقة جدليّة« فمن طبيعة الإنسان أنّه يتعلّم ويعلّم، ويقلّد ويقلَّد، ويأخذ ويعطي، وبهذا التّبادل يتكوّن المجتمع، وتنشأ حضارته وتزدهر وتثمر. فإذا ما اتصّلت المجتمعات، وتماسّت الحضارات، أدّت الطبيعة الإنسانيّة الاجتماعيّة ذاتها إلى مثل هذا التّبادل، وإلى تفاعل الحضارات فيما بينها، وإلى تمازجها وتلاقحها، وأدّى هذا التّبادل والتّفاعل والتّلاقح إلى مظاهر ونتائج هي في مقدّمة الأحداث التّاريخيّة والمولّدات الحضاريّة».[11] (مصطفى رزيق، 1964، ص.212.)

بناءً على ما سبق، يمكننا القول إنّ الانتقال والتّحوّل في علاقة الأنا بالآخر من الصراع الثّقافي إلى الحوار الثّقافي لا ينبغي أن يظلّ حبيس التّنظيرات، بل يجب أن ينتقل إلى مستوى الممارسة الفعليّة والتّطبيقيّة، حين تُصاغ آليّات للحوار تضمن تساوي أطرافه في طرح وجهات النّظر، وحين يؤدّي ذلك إلى وضع هدف واحد مشترك يحقّق المصالح الثّقافيّة والأدبيّة للطرفين معا بقدر متساوٍ وعادل، هدفٌ يضمن لقاء الأنا بالآخر وحوارهما بدل صراعهما وتصادمهما.

3. الدّرس المقارن الجزائري المعاصر وقضايا التّنوّع الثّقافي في النّصوص الرّوائيّة الجزائريّة المعاصرة،

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

سعت الرواية الجزائريّة إلى مواكبة ما استجد من مفاهيم وقضايا معاصرة، متّخذة من **السّرديات الثّقافيّة** نمطا جديدا في الكتابة تستطيع من خلاله التّعبير عن الرّاهن الجزائري بما فيه من قضايا ثقافيّة واجتماعيّة شائكة، هي وليدة عصر "ما بعد كولونيالي" عرف انفتاحا كبيرا على الحضارات والثّقافات التي راحت تتحاور فيما بينها، ممّا سمح بخلق فضاءات للهجنة والتّنوع الثّقافي داخل المجتمعات.

ولعلّ من أهم النّصوص الرّوائيّة الجزائريّة التي عبرّت عن ذلك التّحول الذي شهِدته الكتابة الرّوائيّة الجزائريّة، ما كتبه "**واسيني الأعرج**" و"**عمارة لخوص**" و "**محمد مفلاح**" و"**بشير مفتي**" و"**ياسمينة صالح**" و"**الحبيب السّايح**". الّذين تناولوا قضايا من صميم اهتمامات السّرديات الثّقافيّة مثل: الهجنة والتّعدّد الثّقافي وسرد المنفى والأنساق الثّقافيّة والتّمثّلات الثّقافيّة للآخر المختلف.

يرتكز هذا النّوع من السّرد (السّرد الثّقافي) على حقول معرفيّة مختلفة، ويوظّف فنونا وأجناسا أدبيّة تنصهر معا لتشكّل البنيّة النّصيّة والثّقافيّة لنصوص روائيّة تعدّ فضاءً مناسبا لظهور نوع جديد من الدّراسات النّقديّة والمقارنة الجزائريّة، يسمح فيها النّقد الثّقافي بكشف حركة **النّسق** بوصفه مضمراً يتحرّك ضمن الخطاب على الضّد مع المعلن الواعي، وتكمن أهميّة البحث عن المضمر والمسكوت عنه في هذا النوّع من الكتابات السّرديّة الثّقافيّة في كونه يسهم في إعطاء فكرة صحيحة عن الذّات والآخر من خلال البحث عمّا لا يقال بصورة علنيّة ضمن خطابات الآخر ويضمره لغايات إيديولوجيّة ثقافيّة ولكنّه في الوقت نفسه يشكل جزءاً مهماً من **هويّته الثقافيّة**.

ومن جهة أخرى، فإن أهميّة الدّراسة الثّقافيّة لهذا النّمط من النّصوص الرّوائيّة الجزائريّة ضمن **النّقد الثّقافي والدّراسات المقارنة الثّقافيّة**، تبرز من حقيقة أنَّ الثّقافة تُعينُ على تشكيل وتنميط التّاريخ، وأفضل ما تفعله الدّراسات الثّقافيّة هو وقوفُها على عمليات إنتاج الثّقافة وتوزيعها واستهلاكها، وهذا يستحضِرُ نظريّة الهيمنة التي طرحها **غرامشي**، والتي يؤكّدُ فيها أنّ السّيطرة لا تتمُّ بسبب قوّة المسيطِر فحسب، ولكنها أيضاً تتمكّنُ مِنّا بسبب قدرتها على جعلنا نقبل بها ونسلّمُ بوجاهتها، لذلك وسّعت الدّراسات الثّقافيّة المجال ليشمل عدة مواضيع توجَّه الرّوائيون الجزائريون إلى تناولها وتحليلها مثل قضايا: العرق والجنس والجنوسة والتعصّب الدّيني والطّائفي والتّنوع الثقافي وصراع الأقلّيات.

حاولت كتابات كلّ من **واسيني الأعرج**" و"**عمارة لخوص**" و "**محمد بورحلة**" و"**بشير مفتي**" و"**ياسمينة صالح**" و"**الحبيب السّايح**" تجاوز مرحلة الحساسيّة الجديدة التي ظهرت مع العقود الأخيرة للقرن الماضي (كتابات العشريّة السوداء)، فالتّشكيلات الثّقافيّة والحضاريّة الجديدة المتبلورة مع بدايّة القرن الحالي خلقت نوعا روائيا جديدا ينتمي إلى ما يسمّى بالسّرد الثّقافي الذي يختلف تماما عن سابقه ليس على

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

مستوى التقنيات، بل على مستويات أخرى ارتبطت بظهور مفاهيم حياتيّة جديدة كمفهوم الهجنة وقضايا الغيريّة والتّنوع الثقافي، فكان التّمثيل السّردي هو أنجع الطّرق والوسائل الجماليّة تجسيدا لهذه النقلة، غير أن هذا التّمثيل لابد له من تمثيل يشحنه ويقدم له المادة الثّقافيّة والرّمزيّة للنّص السّردي عموما والرّوائي على وجه خاص، وهو التّمثيل الثّقافي.[12](طارق بوحالة، 2016، ص.3- 4)

لقد جاءت نصوص روائيّة مثل« "ذاكرة الماء" لواسيني الأعرج، و"الجنازة" لرشيد بوجدرة، و"الأعظم" لإبراهيم سعدي، و"متاهات ليل الفتنة" لأحميدة العياشي، و"القاهرة الصغيرة" لعمارة لخوص، و"إرهابيس"

لعز الدين ميهوبي وغيرها مثقلة **بالأنساق ومظاهر التّنوع الثّقافي والتّمثيلات المختلفة للآخر والدّين والسّياسة و صور المثقّف والعنف** وغيرها، عبرّت معظم هذه الأعمال عن الواقع السّياسي والثّقافي الذي عاشته الجزائر فترة التّسعينات وما شهده من عنف وصراع،[13] (طارق بوحالة، 2016، ص.06.) وهي بذلك لم تستطع التّحرر من سلطة الأنساق الثّقافيّة التي هيمنت على الكتابة الرّوائيّة الجزائريّة فترة التّسعينات، والتي عبرّت في معظمها عن فكرة الصّراع مع الآخر الذّي تحوّل من آخر خارجي إلى آخر داخلي، خلق الصّراع معه أزمة هويّة حادّة عاشتها الذّات الجزائريّة

وبقراءة متأمّلة في هذه النّصوص، نجد أن مظاهر الاختلاف التي يمكن رصدها في هذه الأعمال بين الأنا والآخر، هي ما يؤسّس **للفكر التّعدّدي** الذي يشمل مكوّنات ثقافيّة ولغويّة ودينيّة ... مختلفة بينهما تعكس هويّة ثقافيّة خاصة تميّز أحدهما عن الآخر، وتُفضي إلى اختلاف ثقافي تتحاور فيه الثّقافات والهويّات من أجل بناء عالم إنساني ينبذ الهيمنة والسّيطرة والاستبداد والتّمركز الثّقافي، ويقيم جسور التّحاور بين الأنا والآخر.

ولعلّ من أبرز الرّوائيين الجزائريين الذين حاولوا رصد مظاهر التّنوع الثّقافي في المجتمع الجزائري، الرّوائي "**واسيني الأعرج**" الذي تمثّل كتاباته تجربة روائيّة فريدة تخلخل الميثاق السّردي السّائد وتتجاوز التّنميط الأدبي باحثة عن آليات جديدة في الكتابة.

تقوم تجربة **واسيني الأعرج** الرّوائيّة على **التعدّديّة اللّغويّة والثّقافيّة** وتستثمر ما هو مهمّش ومغيّب ضمن المشهد الأدبي، كالاتكاء على مخزون التّراث الشّعبي والاستناد إلى الذّاكرة التاريخيّة وقضايا التّاريخ والهويّة والتّعدديّة الثقافيّة بشكل عام. وتمثّلُ روايته **"البيت الأندلسي"** ذلك النّوع من الخطابات الذي لم يتخلص من أُسرِ الإيديولوجيا على غرار الروايات الجزائريّة السابقة، ولم يحد عن الخط التاريخي الذي وسم تجربة **واسيني الأعرج** الرّوائيّة.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فمن خلال سرد الكاتب لتاريخ مدينة "وهران" بالعودة إلى زمن فتحت فيه هذه المدينة الجزائريّة أبوابها لتحتضن "الموريسكيين" الفارّين بهويتهم ودينهم وثقافتهم من البطش الإسباني، يتضح لنا أن الهويّة الجزائريّة كانت على مدار التّاريخ في حالة حركيّة وتحوّل وبناء، منفتحة على فضاءات الهجنة والاختلاف والتّعدّد باستيعابها لمختلف المتغيّرات التي شهدها تاريخ الجزائر الذي عرف تفاعل عدة حضارات وثقافات مع الهويّة القوميّة الجزائريّة، من بينها الحضارة والثّقافة الأندلسيّة التي انتقلت مع المهاجرين "المورسكيين" لتجعل من مدينة "وهران" الجزائريّة فضاء لهجنة الهويات والاختلاف الثّقافي، عندما اندمج "المورسكيون" مع سكان الجزائر الأصليّين عبر التاريخ.

تتّسم رواية "**البيت الأندلسي**"بطابع تثاقفي يتّضح من خلال سرد الرواية لنضال البطل "مراد باسطا" من أجل الحفاظ على المخطوط، ومنع هدم البيت الأندلسي الذي اعتبر بقاءه مقوما أساسيا في الحفاظ على الذاكرة والهويّة الثّقافيّة الوطنيّة التي تشكّلت من تلاقح عدّة هويات وثقافات عبر التّاريخ، الأمر الذي جعل البنيّة السوسيو ثقافيّة للمجتمع الجزائري اليوم تمتاز بهذا التّنوع الثّقافي واللّغوي الناتج عن تعاقب الثّقافات والحضارات على الجزائر عبر محطّات التّاريخ المختلفة.

بالإضافة إلى أنّ نص الرواية يقوم على مناقشة إشكاليّة مهمّة وحادة تتعلّق بمسألة بناء الهويّة الجزائريّة ومساهمة الهويات والثّقافات الأخرى في هذا البناء عبر التّاريخ، حيث تشترك هذه الهويّات والثّقافات التي احتوتها الجزائر في تشكيل الذاكرة التاريخيّة الإنسانيّة المشتركة للشّعوب وبناء الهويّة الثّقافيّة للمجتمع الجزائري، وقد شكل "البيت الأندلسي"، هذا البناء المعماري التّاريخي، تيمة فكريّة ركّز عليها الكاتب لإيصال فكرة ضرورة المحافظة على الإرث التاريخي لأنه يشكل جزءًا من الهويّة الثّقافيّة للشّعوب.

4. خاتمة: بناءً على ما تقدّم ومن خلال قراءتنا لبعض تجلّيات مفهوم التّنوّع الثقافي في حقل الدّراسات المقارنة وتحليلنا لبعض المفاهيم المتّصلة به كمفهوم الحوار الثّقافي والتّعدّديّة الثقافيّة وهجنة الهويّات، وغيرها من المفاهيم والقضايا التي فرضت نفسها على الكتابة الرّوائيّة الجزائريّة المعاصرة، تخلص دراستنا هذه إلى جملة من النّتائج نوجزها فيما يأتي:

1- التّعدّديّة الثّقافيّة تعني العيش المشترك لفئات اجتماعيّة متعدّدة ولثقافات مختلفة على المستوى الفردي والقومي، وكلّ منها له هويّته التي اكتسبها عبر التّاريخ حتّى صارت جزءًا من تكوينه وتاريخه ومنجزاته، بكلّ قيمها ورموزها ممّا يسِمها بهويّة ثقافيّة خاصّة بها، ولكن في إطار التّعدّديّة. ولا بدّ من وجود نوع من التّجانس وعدم طغيان ثقافة هويّة على الأخرى.

2- إنّ الدّراسات المقارنة الجزائريّة المعاصرة صارت مبنيّة على آليّات **المثاقفة المتعدّدة للظواهر**

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الأدبيّة والثّقافيّة، وهو ما يجعلها تسهم في تحقيق رؤيّة أفضل وتقدير أكثر دقّة للاتجاهات التي تصاحب التّحوّلات الجماليّة والثّقافيّة العامّة، وكذا الكشف الدّقيق عمّا يمكن أن يمثّل نظاما عامّا داخل الخصوصيّة الأدبيّة الوطنيّة للمجتمع الجزائري عبر حقبة تاريخيّة كاملة، وذلك عبر منهجيّة تقوم على الكشف عن الخطوط الرّئيسيّة– العامّة والخاصّة- للظّواهر الأدبيّة التي تعبّر عن التّنوع الثّقافي الذي يطال بنيته السوسيو ثقافيّة .

3- ينبغي على الدّرس المقارن الجزائري تبنّي إستراتيجيّة تقوم على أساس دراسة البنيات الثّقافيّة الوطنيّة المختلفة والمتعدّدة باعتبارها مدخلا رئيسيّا إلى دراسة علاقة هذه البنيات بمثيلاتها الأجنبيّة، حيث تتمّ دراسة الآداب الوطنيّة مع احترام خصوصيّتها الثّقافيّة على ضوء خلفيّة عامة لعمليّة التّشكيل الأدبي العالمي، كما أنّ مختلف أشكال التّثاقف بين الآداب ينبغي أن تدرس في إطار عمليّة أدبيّة واحدة تتناول كافة المكوّنات الثّقافيّة والاجتماعيّة الدّاخليّة للعمل الأدبي، إلى جانب الظروف الخارجيّة التي شكّلت عنصر الفاعليّة والتّأثير.

4- لعلّ ما جعل الدّراسات المقارنة اليوم تتوسّل النّقد الثّقافي، هو محاولتها البحث عن روح جديدة وآليات نقديّة حديثة تمكنّها من استنطاق نصوص سرديّة ثقافيّة أصبحت تستعصي على النّقد بتصوّراته وآلياته ومرجعيّاته القديمة. كل ذلك دعا إلى ضرورة النّظر إلى الدّراسات النّقديّة والمقارنة اليوم برؤيّة حداثيّة جديدة تتمشّى مع مستجدات عصر شكّل الاختلاف الثّقافي والتّعدديّة وهجنة الهويات أهمّ سماته.

5- إنّ ثقافة العيش المشترك وتقبّل الآخر في مجتمعات تتّسم **بالتّنوع الثّقافي**، سينجم عنها مجتمعات تضمّ داخل بنيتها السّوسيو ثقافيّة هوّيات متعدّدة وأحيانا هجينة، ذلك أنّه لا وجود في الحقيقة لهويّة ساكنة تتكوّن دفعة واحدة وتبقى على حالها منذ الولادة إلى الوفاة.

6- ارتبط استخدام مفهوم **الهجنة** بالدّراسات **ما بعد الكولونياليّة**. ويشير هذا المفهوم عادةً إلى خلق أشكال تثاقفيّة جديدة بين الأنا والآخر داخل نطاق الاحتكاك الذي يخلقه الاستعمار. ويمكن توسيع نطاق هذا المفهوم خارج الفضاء الذي خلقه الاستعمار، أي في الفضاءات الاجتماعيّة والثّقافيّة ذات الطبيعة المتنوعة. لا تخضع الهجنة لسلطة نسق واحد ولا تدين لقيم ثقافيّة ثابتة، فهي تداخل وتلاقح بين العوالم تنزاح فيه الهّويّة عن كل ما يوصل إلى الصّدام، فقد غدت اليوم جميع الثّقافات متمازجة تعيش حالة من"**التهجين**"، فالعالم اليوم مكوّن من هويّات كثيرة تتفاعل بشكل منسجم حينا ومتنافر حينا آخر، ضمن حركيّة مستمرّة تُبقي فيها الهجنةُ الهويّة منفتحةً قادرةً على التّجدّد، لأنّ الهويّة ليست بناءً جامدا فهي تخضع للتّحول والتّغير والبناء المستمر والمتواصل دون انقطاع.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

7- إنّ النّصوص الرّوائيّة الجزائريّة المعاصرة، باعتبارها نصوصا ثقافيّة، قد حاولت من خلال ما تطرقت إليه من قضايا فكريّة وثقافيّة أن تلامس الرّاهن الجزائري بإثارة مواضيع تتمشّى مع الواقع "ما بعد الكولونيالي" الذي عرف الانفتاح على قضايا تشكّل محور اهتمام أغلب الدّراسات المقارنة الجزائريّة المعاصرة، ويتعلق الأمر بمفهوم **التّنوع الثّقافي والهجنة** الذي لا تتضح معالمه وإحداثياته إلا في ضوء الحديث عن الهويّة والعلاقة القائمة بين الأنا والآخر، هذه العلاقة التي شهدت الكثير من التّحولات بتغيّر السّياق التّاريخي الذي يؤطرها.

8- لقد استطاعت بعض النّصوص الرّوائيّة مثل رواية " **البيت الأندلسي**" استيعاب مجال الآخريّة بطريقة مغايرة يتداخل فيها (التّاريخي /الواقعي) والتخييلي وينصهران معا للتّعبير عن إشكاليّة معقّدة وصعبة تتعلّق ببناء الهويّة الوطنيّة عن طريق تمازج الثّقافات والهويّات التي شكّلت تاريخ الجزائر التي عاشت ظروف الاستعمار لفترة طويلة من الزمن، الأمر الذي يجعل هذه الرواية نصا ملائما للدّراسة الثّقافيّة.

9- من خلال سرد **واسيني الأعرج** لتاريخ مدينة وهران في روايته "**البيت الأندلسي**"، عن طريق العودة بالقارئ إلى زمن فتحت فيه هذه المدينة الجزائريّة أبوابها لتحتضن الموريسكيين الفارين بهويّتهم ودينهم من البطش الإسباني، يثبت الكاتب **أن** الهويّة الجزائريّة كانت على مدار التّاريخ في حالة حركيّة وتحوّل وبناء، منفتحة على فضاءات الهجنة والاختلاف والتّعدد والتّنوع، باستيعابها لمختلف المتغيّرات التي شهدها تاريخ الجزائر الذي عرف تفاعل عدة حضارات وثقافات مع الهويّة القوميّة الجزائريّة، من بينها الحضارة والثّقافة الأندلسيّة التي انتقلت مع المهاجرين الموريسكيين لتجعل من مدينة وهران الجزائريّة فضاء لهجنة الهويات والتّنوع الثّقافي، عندما اندمج الموريسكيون مع سكان الجزائر الأصليين عبر التاريخ.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

5. قائمة المراجع:

1- إدوارد سعيد، الثقافة والإمبرياليّة، دار الآداب، ط3 ، (بيروت) لبنان، 2004 .

2- العلاّلي الصّادق، العلاقات الثّقافيّة الدّوليّة، ديوان المطبوعات الجامعيّة، ط1، الجزائر، 2006.

3- أمين معلوف، الهويّات القاتلة، تر: جبور الدويهي، دار النّهار، ط1، (بيروت)، لبنان، 1999.

4- آنيا لومبا، في نظريّة الاستعمار وما بعد الاستعمار الأدبيّة، تر: محمد عبد الغني غنوم، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط1، (سوريا)، 2007 .

5- حفناوي بعلي، الحداثة وما بعد الحداثة، دار دروب للنّشر والإعلان، ط1، (عمان)، الأردن، 2011

6- طارق بوحالة، الرواية الجزائريّة والنقد الثقافي، أشغال اليوم الدراسي حول السرد " فلسفة السرد "، كليّة الآداب واللغات، جامعة برج بوعريريج، الجزائر، بتاريخ، 2016/04/10.

7- عبد الله الغذامي، النّقد الثّقافي قراءة في الأنساق الثّقافيّة العربيّة، المركز الثّقافي العربي، ط1، (الدار البيضاء)، المغرب، 2001.

8- فخري صالح، إدوارد سعيد، دراسات وترجمات ، منشورات الاختلاف، ط1، (الجزائر)، 2009.

9- مصطفى زريق، في معركة الحضارة، دار الآداب، ط1، (بيروت)، لبنان، 1964.

10- مصلح النّجار وآخرون، الدّراسات الثّقافيّة والدّراسات ما بعد الكولونياليّة، الأهليّة للنشر والتّوزيع، ط1، (عمان)، الأردن، 2008 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

6. هوامش

(1) عبد الله الغذامي، النّقد الثّقافي قراءة في الأنساق الثّقافيّة العربيّة، المركز الثّقافي العربي، ط1، (الدار البيضاء)، المغرب، 2001، ص.41.

(2) حفناوي بعلي، الحداثة وما بعد الحداثة، دار دروب للنّشر والإعلان، ط1، (عمان)، الأردن، 2011، ص.224.

(3) أمين معلوف، الهويّات القاتلة، تر: جبور الدويهي، دار النّهار، ط1، (بيروت)، لبنان، 1999، ص.28.

(4) إدوارد سعيد، الثقافة والإمبريالية، دار الآداب، ط3، (بيروت) لبنان، 2004، ص.85.

(5) آنيا لومبا، في نظرية الاستعمار وما بعد الاستعمار الأدبية، تر: محمد عبد الغني غنوم، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط1، (سوريا)، 2007 ، ص.182.

(6) إدوارد سعيد، الثقافة والامبريالية، ص.111

(7) فخري صالح، إدوارد سعيد، دراسات وترجمات ، منشورات الاختلاف، ط1، (الجزائر)، 2009، ص.80

(8) مصلح النّجار وآخرون، الدّراسات الثّقافية والدّراسات ما بعد الكولونيالية، الأهلية للنشر والتّوزيع، ط1، (عمان)، الأردن، 2008.ص.98

(9) المرجع نفسه، ص.99

(10) العلاّلي الصّادق، العلاقات الثّقافيّة الدّوليّة، ديوان المطبوعات الجامعيّة، ط1، الجزائر، 2006، ص.97.

(11) مصطفى زريق، في معركة الحضارة، دار الآداب، ط1، (بيروت)، لبنان، 1964، ص.212.

(12) طارق بوحالة، الرواية الجزائرية والنقد الثقافي، أشغال اليوم الدراسي حول السرد " فلسفة السرد "، كلية الآداب واللغات، جامعة برج بوعريريج، الجزائر، بتاريخ، 2016/04/10، ص3- 4.

(13) المرجع نفسه، ص.06.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com